

التاريخي والتخييلي في الخبر

محمد عبد الله زروق

أستاذ الأدب ونقده المساعد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، مسقط، سلطنة عمان

(قدم للنشر في ١/٢/١٤٣٩هـ، وقبل للنشر في ٣/٤/١٤٣٩هـ)

ملخص البحث: الخبر في التراث العربي ليس محض جنس أدبي وإنما هو شكل أجوف قابل للامتلاء، ولذلك ساد في مختلف الفروع العلمية والأدبية واعتمد أداة لحمل المنقول الإخباري. وقد لاحظنا أثناء تعاملنا مع شكل الخبر في التراث العربي في مصادر مختلفة أن الخبر مهما ارتحل في مصادر المعرفة المتباينة في شكلها، فإنه يُحافظ على سماته وخصائصه ومميزاته.

ولقد صدرنا عن سؤال بسيط في هذا البحث مفاده رصد تحول الخبر عبر مجالين معرفيين مختلفين في الظاهر، وهما الأدب والتاريخ، ففي حين يُوصَل الأَوَّل بالتخييل والتمثيل، يُوصَل الثاني بالتدقيق والتثبت من المنقول الخبري، غير أننا لاحظنا أن الخبر في المصنّفات التاريخية لا يقلل تخييلًا عن الخبر في المجال الأدبي، والخبر في المجال الأدبي لا يعوزه التدقيق والتحري، فهل يكفي أن يُصنّف الكتاب على أنه كتاب في التاريخ حتى تتحقّق مقروئية الثقة في المنقول الخبري؟ وهل يكفي أن يُصنّف الخبر في مدوّنة أدبية حتى يُوسَم بأنه تخييلي؟

لقد عملنا في هذا البحث على تفكيك بنى الأخبار الواردة في هذين المجالين، وبيان قدرة الراوي على التحقق فيما ينقله الرواة المتعدّون، وحاولنا النظر في هذه الفروق بين وجود الخبر في مصنّفات التاريخ، واستحضار الخبر في المدوّنات الأدبية.

الكلمات المفتاحية: خبر، تاريخ، رؤية، سرد.

Imagination And History In The "KHABR"

Mohamed Zarrouk

Assistant Professor of Literature and Criticism, Arabic Language and Literature Department, College of Arts and Social Sciences, Sultan Qaboos University, Muscat, Oman

(Received:1/2/1439H, Accepted for publication 3/4/1439H)

Abstract. : Al khabar is not just a literary form, it is an empty form, we can find it in many cognitive disciplines such as books of "Futuh Al Boldan", history, religion and literature. In this study, we are interested in the existence of al khabar in the fields of literature and history, they are two different disciplines, but they are closely related to Islamic culture. The literature is the field of imagination, history is the field of precision and validation. The study aims to find answers to the following questions:

- Is the mode of 'al khabar' and its vision and events progress differ from literary to historical and vice versa?
- How can we define the historical "khabar" and literary "khabar"?
- How can we know that the "khbar" is fictitious or documentary restriction?
- Is it enough to be a book in history to make his "akhbar honest?
- Is it enough to have the book in literature to be a fiction?

Keywords: khabar, history, vision, narration.

المحافظة على نسيجه الداخلي، وعلى هيكله الأساسي مهما ارتحل وتفرّعت به السبل.

وقد أرفقنا البحث ببعض من النصوص التي اعتمدها للمقارنة والبيان، في ملف ملحق، وقد أخرجناها من المتن حتى لا تُرثق العمل من جهة، وحتى يتيسر الرجوع إليها من جهة ثانية.

١- العتية وتحديد المقصد

تحدّد مقدّمة المؤلف في أغلب كتب الأخبار وجهة المصنّف وقصد الراوية الجامع من روايته لأخبار يُمكن أن تُوجّه مقاصد مختلفة، وترتجل لتحقيق أغراض متعدّدة، فالخبر يمكن أن يتوجّه وجهة الأدب فيكون القصد منه الإفادة والإمتاع، ويمكن أن يتوجّه وجهة التأريخ فيكون المقصد منه ضبط وقائع الأزمان وتدوينها، غير أنّ الخبر في حالات متعدّدة يبقى هو هو، برواته وأسانيده ومحتواه وطريقة عرضه. ونعمل في هذا الجزء من البحث على بيان خطط المقدمات التي بمقتضاها يُصنّف الخبر على أنّه خبر تاريخي أو خبر أدبي، وقدرة الذات المتكلمة على تحقيق هذه المقاصد على مستوى التنظير أو على مستوى الرواية والتحقق منها.

يذهب ابن الأثير (٦٣٠ هـ) في مقدّمة كتابه إلى بيان فساد الكتابة في التاريخ، الأمر الذي دفعه إلى الدخول في كتابة نفي بالعرض، وتحقّق المقصد. فباب نقد الموجود والبناء عليه يُشكّل محورا أساسا تمهّد به الذات المتكلمة في بدايات كلامها حتى تُضفي على مشروعها الكتابي مشروعية ومقبولية، يقول ابن الأثير: "فإني لم أزل محبّا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها، مؤثرا للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيتها، ماثلا

١- القاضي، محمد: *الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية*، ط١، تونس- بيروت: منشورات كلية الآداب منوبة، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨، يقول "الفرق بين المؤرّخ والراوي زائف لأنّ كلاً منهما راوٍ، كما أنّ رواية الأخبار التي نجدتها في كتب الأدب لا يمتنعون عن نقد هذه الأخبار (..) وكذا كان أصحاب المؤلفات التاريخية لا يتردّدون أحيانا في إيراد أخبار مدخولة إذا هي تحصّت بميزان العقل بان خلطها" القاضي ٥٩٦

٢- الذات المتكلمة (sujet parlant)، وهي ذات اختبارية، تدلّ وفق تصنيف ديكرول لأصوات الخطاب على المنتج الفعلي للملفوظ، والمسؤول الحقيقي عنه. انظر تفصيل ذلك في:

Amalia Rodríguez Somolinos, Locuteur, Enonciateur, et prise en charge. Quelques remarques sur la polyphonie en linguistique. Maria luz casal silva et al. (eds). La linguística francesa en españa camino del siglo, XXI, 2000, p 897

تقديم

للخبر في التراث العربي أوجه وأشكال، فهو يدخل في مقامات مختلفة ويُجرى في مناسبات متعدّدة، يرتبط بها ويدخل في تحقيق مقاصد يُجدها داعية، فالخبر مرتجل في أصله، مهاجر في طبعه، لا حدّ يضبطه، ولا علم ينفرد به ويستقلّ، فهو مصدر المعرفة في كتب المغازي، وكتب الفتوحات، ومصنّفات الأدب الجامعة، وفي كتب التاريخ، وكتب الفقه، وغيرها من الكتب الراجعة إلى مختلف الفنون والآداب.

لقد اجتهدنا في هذا البحث أن نُدرِك صلة الخبر بمجالين يتنازعانه، وهما التاريخ، من حيث هو ضبط وتقييد، والأدب من حيث هو توهمٌ وتخيل. وهي صلة جدّ معقّدة في التراث العربي، بسبب علوق الأدب بالتاريخ، وتداخل هذين الفرعين وعدم توضّح الحدود الضابطة لهما والفاصلة بينهما، في ظلّ تصوّر عربيّ قديم، مؤثّر يرى أنّ الأدب جامع العلوم والمعارف.

وإشكالية بحثنا لا تهتمّ كبير اهتمام بتخليص هذين المجالين، أو بيان حدود التمايز وحدود التداخل بينهما، وإنّما سؤالنا كيف يُصنّف خبرٌ على أنّه تاريخي أو أدبي، وهو موجود بصيغته وبرواته في مصنّفين مختلفين شكلا، أحدهما يصبو إلى التخيل في منطوق أصحابه، وثانيهما يرمي إلى الإثبات وتسجيل الحقائق؟

هل أنّ ادّعاء القصدية التاريخية يسقط عن الخبر المدعوّ كلّ صبغة تخيلية؟ وهل أنّ ادّعاء الأدبية يسقط عن الخبر وجهة التأريخ؟ هل يتغيّر الخبر شكلا أو جوهرًا بخروجه من مقام التاريخ ودخوله مقام الأدب، أو بخروجه من مقام الأدب ودخوله مقام التأريخ؟ ما هي الآلية التي نقي بها المؤرّخون أخبار الأدب؟ وهل فعل التحري في الإسناد وردّ الخبر إلى الخبر والمقارنة بين الروايات والرواة هو الفعل الضامن لمصداقية الخبر أو أنّ فعل النظر العقلي والتدبر في ما هو ممكن الوقوع وما هو خارج عن العالم المادي، وردّ التناقضات الداخلية في الأخبار إن حُكمت منطقيا خارج دائرة التخيل هو ما يُحوّل الخبر إلى مصدر يُعتمد في نقل صور الماضين؟

لقد عملنا على النظر في النصوص ذاتها، الواردة في كتب التاريخ وفي كتب الأدب وحاولنا أن نقارن بينها وأن نُبدي قوّة التخيل وقوّة التأريخ، التحري والإطلاق، التعدّد والواحدية، لنقف على هذه القدرة التي يمتلكها الخبر في

وبعض الخصائص التي تختص بها الكتابة التاريخية، أمّا المشترك العامّ، فهو فعل الطلب من الذات المخاطبة، وهو فعل نجده في ما نعرض له من مقدمات مختلفة، واستجابة المطلوب للطالب، يقول ابن الأثير: "فبينما الأمر كذلك إذ برز أمرٌ من طاعته فرض واجب، وأتباع أمره حكم لازب، من أعلق الفضل بإقباله عليها نافقة، وأرواح الجهل بإعراضه عنها نافقة، من أحيا المكارم وكانت أمواتا، وأعادها خلقا جديدا بعد أن كانت رفاتا، من عمّ رعيتة عدله ونواله، وشملهم إحسانه وإفضاله، مولانا مالك الملك الرحيم، العالم المؤيد، المنصور، المظفر بدر الدين، ركن الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، خلد الله دولته" (ابن الأثير ١/٥). وأمّا الخاصّ، فيظهر في نقد مؤلفات التاريخ السابقة والتبشير بصناعة كتابة توافق ما يقتضيه هذا العلم وتساعد على تحقيق مقاصده، بتوخي التدقيق في السند، والصدق في النقل دون زيادة أو نقصان، واحترام الرجال في ما نقلوه وحملوه وأسندوه، واعتماد مراجعة الأحوال والأحداث ومدى مطابقتها للممكن الحدوث.

يقرّ الطبري في مقدمته أنّه يُعوّل على النظر في أسانيد الأخبار وطرائق نقلها أكثر من تعويله تدقيق النقل ونقده، ولعلّ ذلك ما يُفسّر غلبة جنوح تاريخ الطبري إلى إيراد مرويات أقرب إلى التخييل منها إلى التوثيق، وهو أمرٌ يبيّن قوّة آلة الرواية في الثقافة العربيّة، ومدى ثقة المؤرّخين الأوائل فيها، يقول: "وليعلم الناظر في كتابنا هذا أنّ اعتمادنا في كلّ ما أحضرت ذكره فيه ممّا شرطت أنّي راسمه فيه، إنّها هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس، إلّا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بها كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أبناء الحادّين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم، إلّا بإخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ممّا يستنكره قارئه، أو يستشعنه، من أجل أنّه لم يعرف له وجها من الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنّه لم يُؤت في ذلك من قبلنا وإنّا آتي من قبل بعض ناقله إلينا، وأنّا إنّما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا" (الطبري، ٧-٨)، فنتبيّن ارتكاز الذات المتكلمة على الأخبار دون المساس بها، على وعي هذه الذات بأنّ من هذه الأخبار ما يخرج عن حدّ التاريخ إلى التخييل، وهو أمرٌ عابه ابن

إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها، فلمّا تأملتها رأيته متباينة في تحصيل الغرض، يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل إلى العرض، فمن بين مطوّل قد استقصى الطرق والروايات، ومختصر قد أخلّ بكثير ممّا هو آت، ومع ذلك فقد ترك كلّهم العظيم من الحادّات، والمشهور من الكائنات، وسوّد كثيرٌ منهم الأوراق بصغائر الأمور التي الإعراض عنها أولى، وترك تسطيرها أخرى" (ابن الأثير، ١/٢)، فتظهر في خطاب التقديم ذاتيةٌ يُغلب فيها صاحبها حضور "أنا" المتكلم، التي تمتدّ فينحسر الخطاب التاريخي القائم نظريًا على الإيهام بالموضوعيّة وتنحية الذات، كما نلاحظ توجّها إلى نسف الكتابة التاريخية السابقة التي لم تُؤقّق في تقدير الأزمان وبيان أهمّيّتها، ولذلك، فالمؤلف يسعى إلى تحقيق ما لم يتحقّق في تقدير النوازل والأحداث، وتخصيص المدّة الروائيّة الموافقة لأهمّيّة الحدث. وكما هو الشأن في أغلب مقدمات كتب التاريخ العربي القديمة فإنّ الذات الكاتبة تنفي قصديّة القصص والإخبار الزائف، وتبين منزلة التأريخ المعرفيّة والحضاريّة، يقول ابن الأثير في ذلك: "ولقد رأيت جماعة ممّن يدّعي المعرفة والدراية، ويظنّ بنفسه البحر في العلم والرواية، يحتقر التواريخ ويزدريها، ويُعرض عنها ويُلغئها، ظنًا منه أنّ غاية فائدتها إنّما هو القصص والأخبار، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسفار، وهذه حال من اقصر على القشر دون اللبّ نظره، وأصبح محشلبا جوهره" (ابن الأثير، ١/٦)، وهو صوتٌ ثانٍ تُظهره الذات المتكلمة لبيان الفوارق بين الدخول في القصص الخالص وإبراز الفائدة المرجوة من تدوين التاريخ وضبطه، ليُوجد المناسبة لمعالجة هذا الرأي وللوقوف على المقاصد الحقيقيّة من التاريخ، والفوائد المتحقّقة منه، وهو يقسمها إلى "فوائد دنيويّة"، تُظهر في قدرة التاريخ على جعل الإنسان يعيش العوالم الماضية ويرى الأحداث والأفعال، وتظهر في أنّ وقائع التاريخ عندما تُروى تمثّل عبرة للملوك وأصحاب الأمور، وتظهر أخيرا في ما يكتسبه الإنسان من التجارب والمعارف، وإلى "فوائد أخرويّة"، منها "التخلّق بالصبر والتأسي" (ابن الأثير، ١/٨)، ومنها الاتعاظ والاعتبار بفناء الأمم والملوك والشعوب، والتوجّه إلى الزهد بحكم ضرورة وقوع الفناء. وكان الركن الأخير من هذه العتبة داخلا في ما تدخل فيه أغلب كتب النثر العربي القديم، من وجود ذات مخاطبة حاكمة نافذة طلبت من المؤلّف صناعة الكتاب. فنتبيّن لنا جملة من الخصائص العامّة للكتابة النثرية في المجاميع العربيّة،

المتكلم تأليف كتاب بشكل مباشر أو غير مباشر^٢، وفي عاثة المخاطبين الذين يُراعي المتكلم وجودهم، وإمكان نفورهم أو إقبالهم، ويُقدّر ميّلتهم وملّكهم، يقول الأصفهاني في إطار بيانه لخطّة ترتيب فصول كتابه: "فلو أتينا بما عُني به شعر شاعر منهم ولم نتجاوزته حتّى نفرغ منه، لجرى هذا المجرى، وكانت للنفس عنه نبوة، وللقلب منه ملّة، وفي طباع البشر محبة الانتقال من شيء إلى شيء، والاستراحة من معهود إلى مُستجدّ. وكلُّ مُنتقل إليه أشهى إلى النفس من المُنتقل عنه، والمُنتظر أغلب على القلب من الموجود. وإذا كان هذا هكذا، فما رتبناه أحلى وأحسن، ليكون القارئ له بانتقاله من خير إلى غيره، ومن قصّة إلى سواها، ومن أخبار قديمة إلى محدّثة، ومليّك إلى سُوقة، وجدّ إلى هزل، أنشط لقراءته وأشهى لتصفّح فنونه، لا سيّما والذي ضمّناه إيّاه أحسن جنسه، وصفو ما ألّف في بابه، ولباب ما جُمع في معناه" (الأصفهاني، ٢٥/١). فالأصفهاني لا يُراعي الخطاب المقول بقدر مراعاته للذوات المخاطبة، ومركز همّه أن يأنس القارئ بأخباره، وألاّ ينصرف عنه، فهو يُراعي البعد النفسي وآفاق التقبل الممكنة في التصرّور القرائي، وفي تقدير الاستعداد النفسي لهذا القارئ. ولذلك فهو يُقيم كتابه بتمامه على هذا الاعتبار في تقدير قارئ هو في أصل الوضع ينقسم مقامياً إلى نوعين لا يتماثلان، قارئ سلطة تُراعى منزلته في ما يُروى من أخبار، وقارئ عامّ مفترض، يُراعى أيضاً وجوده، في ما يُبعد عنه الملل، ويُربّعه في مواصلة التعلّق بالكتاب.

نتهي من كلّ ذلك إلى فكرة بسيطة مفادها أنّ مقدّمات كتب الأخبار تُحدّد توجّهها وإمكان تصنيفها الموروث على أنّها كتب تاريخ أو كتب في التخيل الأدبي، وصاحبها هو الذي يُوجّهها هذه الوجهة التي يختار فيها أن يكون مصنّفه داخلاً في علم التاريخ أو داخلاً في الأدب، مع ضرورة أن ندرك عسر الفصل بين المجالين في التراث العربي، فالأخبار أدخل في "النقل"، منها في التخيل، وهي واقعة في تصوّر القدامى على أنّها حمّالة وقائع وأحداث. في حين أنّا نجد في كتب أخبار الأدب من ينقد مصادره (مثل الأصفهاني)،

خلدون على سابقه، ودعا إلى تدبّر الأخبار والاجتهاد في كتابة التاريخ بتخليص الصحيح من الفاسد، والسليم من السقيم، والحقيقي من الموضوع، دون الاكتفاء بالنقل والرواية، يقول: "اعلم أنّ فنّ التاريخ فنّ عزيز المذهب جمّ الفوائد شريف الغاية إذ هو يُوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم، حتّى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج إلى ماخذ متعدّدة ومعارف متنوّعة وحسن نظر وثبّت يُفضيان بصاحبها إلى الحقّ ويُنكبّان به عن المزلات والمغالط لأنّ الأخبار إذا اعتُمد فيها على مجرد النقل ولم تُحكّم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربّما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سمينا" (ابن خلدون ١٩٩٩، ١٢/١).

تعوّل المصنّفات التاريخية بشكل مطلق أو محدود على الخبر أداة رئيسة للتأريخ. ولكن من المؤرخين من يدعو إلى النظر في هذه الأخبار وتمحيصها وعرضها على معارف مساعدة، ومقايستها بألة العقل، ومنهم من يدعو إلى اعتماد آلة النقل والرواية دون نظر أو تحقيق، وفي كلتا الحالتين فإنّ صاحب الخبر التاريخي يصبو إلى تحقيق قصديّة التأريخ، وتقييد وقائع الأزمان، واستعادة حوادث لا تظهر إلا بوساطة اعتماد الخبر بألته الإسناديّة الدقيقة أو بتجريده منها والاجتهاد في تلخيص الوقائع والحوادث (كما هو الحال في كتاب ابن خلدون). فهل تختلف هذه القصديّة عمّا يصبو الخبر الأدبي إلى تحقيقه؟ وهل تختلف الأخبار بخروجها من المقام التاريخي وحلولها في المقام الأدبي أو العكس؟

تختلف مقاصد الذات المتكلّمة بشكل جوهريّ في مقدّمات كتب الأخبار الأدبيّة، إذ هي تصل أخبارها بمقصد الإفادة والمتعة، وترتّبها لتحقيق هذا القصد، والمُوجّه الهامّ لها في اختيار الأخبار وترتيبها وروايتها، وإطالتها أو اقتضاها هو مراعاة مقام المخاطب، الذي ينقسم في ذهن المتكلّمين إلى طبقتين، طبقة طالبة رغبة، هي ما أشرنا إليه سلفاً بالجهة الثابتة المشتركة بين أغلب كتب الأخبار على اختلاف مقاصدها ومقاماتها، تظهر عموماً في سلطة "تطلب" من

^٢ - الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عبّاس ج ١، ط ٣، بيروت: دار صادر، ٢٠٠٨. ص ٢٥. يقول: "والذي بعثني على تأليفه أنّ رئيساً من رؤسائنا كلّفني جمعه له، وعرفني أنّه بلغه أنّ الكتاب المنسوب إلى إسحاق مدفوع أن يكون من تأليفه، وهو مع ذلك قليل الفائدة، وأنّه شاكّ في نسبته".

خلدون "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، من استنادٍ إلى مرجعيّاتٍ نقدتها في مقدّمته، ونقد طرقها، خاصّة في ضبطه لبداية الكون ولأنساب الأمم، ولتاريخ العرب ومن جاورهم، فقد استند إلى المسعودي والطبري وابن الأثير، وأكثر من الرجوع إلى ابن الكلبي في الأنساب على ما شاب روايته من قرح وتجريح.

لقد ذهب محمد القاضي إلى أنّ الخبر في أصله عالقٌ بمجال التاريخ واصلاً إيّاه بقصديّة الإعلام الداخلة في مقام التاريخ، ونافياً عنه قصديّة التأثير التي يميّز بها المقام الأدبيّ، ذلك "أنّ الخبر في أصله تاريخيّ، ولذلك فإنّ مهمّة الراوي هي أن يضطلع بدور الوسيط بين الواقع في صورته الحداثيّة والقارئ، مكتفياً بالجهد الأدنى، لأنّ وظيفته الأساسيّة هي الإعلام لا التأثير. وإذا نحن اعتبرنا أنّ الإعلام أكبر غايات التاريخ، وأنّ التأثير أكبر غايات الأدب، أدركنا أنّ الخبر كان في بداية أمره إلى التاريخ أقرب منه الأدب" (القاضي، ١٩٩٨، ٥٩٨)، غير أنّ ذلك لا يُشكّل فارقا في الأخبار كبيرا، فالإعلام لا يخلو من رغبة في التأثير خاصّة في المقامات التي نشأ فيها الخبر في ظلّ سائد سياسيّ استقطب هذا التاريخ وأراد أن يستولي عليه وأن يوجّه وجهته (زروق، ٢٠١٢، ١٩)، "فالتاريخ وإن غلب عليه الإعلام خطابٌ سرديّ لا يخلو من مقصد تأثيريّ، والأدب وإن غلب عليه المقصد التأثيريّ لا يخلو في حالة الأخبار على الأقلّ من طابع إعلاميّ" (القاضي، ١٩٩٨، ٥٩٨). فيتضافر التاريخيّ والأدبيّ في الخبر، ولا غرابة في ذلك في ظلّ تحقّق مفهوم للأدب يضمّ التاريخ في ثناياه، ولذلك فإنّنا نجد أخبارا عديدة ترتحل من قصديّة إلى أخرى، دون أن يتبدّل شكلها ولا روايتها ولا مضامينها، يقول محمد القاضي في هذا الشأن "ولئن كانت المادّة الأوليّة التي يمتح منها الرواة في الأخبار الأدبيّة والأخبار التاريخيّة مختلفة بعض الاختلاف فإنّه يعسر علينا أن نحدّد لكلّ نوع مجالا أو موضوعا لا يخرج عنها، ولعلّ لهذا التواشج بين الأدب والتاريخ سببين أولهما اشتراكهما في استخدام الخبر شكلا من أشكال تنظيم المادّة الأوليّة، وثانيهما انعدام الفصل القاطع بين التاريخ والأدب في سلّم تصنيف العلوم عند العرب" (القاضي، ١٩٩٨، ٥٩٨).

وعليه، فإنّ الأخبار التاريخيّة لا تعدم تخيلا قصصيا، يظهر في رؤية الأحداث وتكيفها وعقدتها على نيّة التأثير في

ونجد في كتب التاريخ من يُقدّس مصادره (كما هو حال الطبري في تاريخه).

فهل نجد هذا الفارق واضحا داخل المتن؟ وهل تختلف الأخبار شكلا أو نقلا أو سندا بخروجها من مقام ودخولها في مقام مختلف؟

٢- التخييل في الخبر التاريخي

يشكّل السرد أداةً مشتركةً بين قاصد التاريخ، وقاصد الأدب، فكلاهما يروي وقائع من وجهة نظرٍ ما، واستنادا إلى ذلك تتداخل جهاتٌ عديدة لتوجيه وجهة نظر كاتب التاريخ، في حين يُدرك كاتب أخبار الأدب أنّ وجهته رهينة رؤيته، فلا موضوعيّة مطلقة في الخطاب التاريخي، ولا خيالية مطلقة في خطاب الأدب. ويتعسّر هذا التداخل في فضاءٍ عربيّ يُعتبّر فيه التاريخ وجها من وجوه الأدب، ممّا يدفعنا إلى النظر في حدّ العرب للأدب.

لقد تأصّلت الأخبار العربيّة في أوّل ظهورها، في فضاء القصديّة التاريخيّة، فالأخبار الأولى كانت تتوجّه أساسا إلى ضبط ما كان في ماضي الأزمان، وأصول القبائل وتفرّق الأمم والشعوب، وتتالي الأنبياء مثل ما كان ذلك في "كتاب التيجان في ملوك حمير" (ابن منبه، كتاب التيجان في ملوك حمير)، أو "كتاب الأَصنام" (الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب)، أو كتب المغازي والفتوحات وأخبار الملوك والأمم الغابرة، على ما داخل هذا التوجّه التاريخي من تخييل، فكانت الواجهة نحو الأخبار والإعلام، وموافقة الحال، وإيجاد ما يُرضي المخاطبين، دون تدقيق أو مُراجعةٍ أو عرضٍ على العقل الناقد، وذاك أمرٌ طبيعيّ، فالكتابة التاريخيّة في العصور الإسلاميّة الأولى لم تهياً عناصرها، ولم تتشكّل آلياتها. وحتى بالنسبة إلى المؤرّخين المتأخرين الذين تكفّلوا بنقد هذه المصنّفات الأولى وبيان ما داخلها من أساطير وأهواء وكذب، فإنّهم لم يتمكّنوا من التجرّد من هذه الرؤية الأولى، واستندوا إليها من حيث تغليب المنظور المحدّد للاتجاهات الكبرى في رؤية وقائع التاريخ، ويمكن أن نشير في هذا المقام دون كبير توسّع إلى ما غلب على كتاب ابن

⁴ -Monika Fludernik: An Introduction to NARRATOLOGY.

Translated from the German by: Patricia Häusler-Greenfield and Monika Fludernik. Routledge. London and New York. 2009. P 3.

"History as historiography is never objective"

"Another consequence of this is that events of world history have been presented predominantly from "our"(i. e. a European or Western) point of view

جزيرة من جزائر البحر وشدة ملكه وعظم شأنه، ولم يكن للناس إليه سبيل، فخرج سليمان إلى تلك الجزيرة، وحملته الرياح حتى نزل بجنوده بها، فقتل ملكها وغنم ما فيها، وغنم بنتا للملك لم ير الناس مثلها حسنا وجمالا فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت على قلة رغبة فيه، وأحبها حباً شديداً، وكانت لا يذهب حزنها، ولا تزال تبكي" (ابن الأثير ١/٢٣٨).

- إسقاط الواقع الإسلامي لفظاً واعتقاداً على واقع تاريخي كان جاهلاً بالقرآن وبالإسلام، فالراوي قد جعل سليمان يعرض على المرأة الإسلام، إضافة إلى استعمال آية من القرآن وإسنادها لفظاً إلى سليمان، استناداً إلى سارد يرى من منظوره العقدي، وهو منظور ذاتي محدود يلبسه إلى شخصيات وأحداث واقعة قبل الإسلام بزمان طويل، "ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت"

- مسار الخبر وقصديته يشدانه إلى فضاء القصص التخيلي أكثر من وصله بالتقييد والتسجيل، ذلك أن نواة الخبر وتوسعتها قد عقدتا على بيان صفاء النبي سليمان ورفضه لأن يُعبد غير الله في بيته وإن تعلق قلبه بمن عصت ربّه.

- ينحو الخبر منحى الإطلاق، فلا تحديد للمكان، ولا ضبط للزمن، ولا تسمية لبعض الشخصيات على أهميتها التاريخية وعدم أهميتها القصصية.

- شخصيتان أساسيتان في الخبر هما سليمان ذو المرجعية الدينية، بما يحمله معه من تصورات ثابتة، في تواصله مع الجن وقدرته على تسخيره وتصريفه، مما جعل له في أذهان الناس صورة القادر على اكتشاف المجهول، العالم بالسحر، المدرك للغة الحيوان. تلك صورة للشخصية تبين القدرة النبوية وما يتجاوزها إلى قدرة أسطورية، أما الشخصية الثانية فهي ابنة الملك، دون أن يسميها الراوي، وهي ابنة ملك مجهول، ومملكته مجهولة، ولكن صفاتها التي يريدها الراوي معلومة، وهي أنها بالغة الجمال، إذ "لم ير الناس مثلها حسناً وجمالاً"، وتلك الصفة هي التي جعلت سليمان النبي، يطلبها أولاً للإسلام وثانياً للزواج، وقد أحببها، "وأحبها حباً شديداً"، وهذا ما لاحظناه سابقاً من ترك الراوي للوقائع التاريخية المؤثرة في تواريخ الأمم والملوك، وتتبعه لوقائع ذاتية، ولميول وجدانية، الأدب هو الأقرب إلى التعبير عنها. وأمّا العونان المساعدان، فهما الجوّاري خدم الملكة، ولا أثر لهن سوى تتبع سيّدتهن في فعل عبادة وثن الأب،

المخاطب، وفي تحديد الشخصيات المرويّة وضبطها بصور نمطيّة، وفي تحقّق ذاتيّة بادية في الخطاب، ظاهرة، لا تخفيها الذات المتكلمة ولا تَسْهَرُها. فيفارق الخبر التاريخي أصوله ومقاصده، ويتحوّل إلى خبر أدبيّ تتحكّم فيه رؤية الذات المتكلمة، المُصرّفة له، المُجرية لاعتقادها وهواها، ويمكن أن نستدلّ على ذلك ببعض من الأخبار المأخوذة من كتب تصنّف على أنّها تاريخيّة.

المثال ١: هو خبر مأخوذ من كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير (انظر الملحق، نصّ ١).

ندرك من هذا الخبر بيسر أنّ وروده في مقام تاريخي لم يُحوّله إلى خبر تُرَاعَى فيه حدود الكتابة التاريخية، أو بالأحرى يختلف عن أساليب وطرائق بناء الأخبار في المقام الأدبيّ، بل يُمكن أن نستنتج أنّ الغالب عليه الدخول في مقام القصص التخيلي، الذي تظهر عناصره من خلال:

- تدخّل الراوي في بيان الأحوال، والنفوذ إلى عمق الشخصيات مبينا مختلف أحاسيسها ومشاعرها، فالأحوال تشدّد الخطاب إلى الذاتية وتناهى به عن موضوعيّة منشودة، ولذلك فقد غاب المقصد التاريخي، وحلّ محلّه التضخيم القصصي، الذي جعل المرأة الكافرة في خانة النبيّ الصالح في خانة مختلفة، والمساعد المساهم في جلاء الحقائق في خانة ثالثة.

- غلبة الرؤية العالمة التي تجعل الراوي داخلاً في النفوس، مبدياً ما كان منها باطناً، فالمرأة لم يحسن إسلامها، والنبيّ سليمان عالقٌ وجدّه بالمرأة، والراوي مدركٌ للظاهر المعلن وللباطن المضمّر، وذلك ظاهرٌ في أغلب المراحل الحديثة لرواية الخبر، ومثاله قوله: "قيل: سمع سليمان بملك في

نحن لا نعلم كثيراً على مقارنة بول ريكور في ضبطه للعلاقة بين السرد والتاريخ على قيمة ما كتبه في ذلك، غير أننا نستند إلى رؤيته أحياناً في ضبط خصائص الخطاب التاريخي وصلته بالذاتي والحكائي، ومن ذلك مثلاً إثباته لوجود وجهة نظر المؤرخ في كتابته التاريخية، يقول: "ربّما وجب علينا الردّ بأنّ الحبكة، لا من حيث هي متطابقة مع منظور فاعل، ولكن بوصفها تُعبّر عن "وجهة نظر" الراوي - أو لنقل عن "صوته السردى" - لا تعرف شيئاً عن النتائج غير المقصودة" (ريكور: ١/٢٧١)

- نقصد بالتضخيم القصصي ترك النوى الحديثة العينية، والدخول في توسيع الأحداث بحكاية الحال وحكاية القول، والصدور عن نوى حديثة يُمكن أن يقتصر عليها المؤرخ، لتوسيع دوائر السرد بممكنٍ سرديّ يُؤكّد وجود ذات داخلية في ما تسرد، مغلبة رأيها ورؤيتها.

ينبني خبر الزبّاء الوارد في كتاب الكامل في التاريخ على عقدة الثأر والإعداد لها وتحقيقها، فالزبّاء (في غياب واضح لذكر أعمالها والحوادث التي أُنْتُها أو أُتت عليها في زمانها)، بعد أن يقتل جذيمة أباهَا تعمل على إقرار مُلكها والتفكير في الثأر من قاتل والدها، فتكون الحيلة، وفي المقابل ينخدع جذيمة، على تحذير طرف مقرّب منه له، مثل شخصية مساعدة، حكيمة، بالرغم من أنّ صاحب كتاب التاريخ قد أثبت في بداية حده لشخصية جذيمة أنّه فطن، بالغ الدهاء، "قال: وكان جذيمة من أفضل ملوك العرب رأيا، وأبعدهم مُغاراً، وأشدّهم نكايّة" (ابن الأثير، ٣٤٢)، فتنمو الأحداث على الرغبة في تحقيق هذا الافتقار (طلب ثأر الأب)، وتتركز الرؤية السردية على ذلك. فالخبر متأسس على شخصيتين متوازيتين، لهما نفس المقام، سلطة، ولهما نفس القوة الذهنية، فطنةً وذكاءً، وعلى شخصيتين مساعدين، أولاهما أخت الزبّاء، وهي ملكة أيضاً، واسمها ربيعة، "وكانت عاقلة" (ابن الأثير، ٣٤٥)، وقد قدّمت النصح إلى أختها في طريقة الأخذ بالثأر فأصغت إليها، وثانيها هو قصير، مساعد جذيمة، وقد قدّم النصيحة إلى صاحبه فأعرض عنها. وتتواصل هذه الشخصيات عبر حكاية أقوال ينقلها الراوي بصيغتها المباشرة، في مختلف الأحوال والمناسبات، وكان الراوي عليهم بما يدور بين الأخت وأختها، وبين الصاحب وصاحبه، ولذلك فقد نقل الأقوال وفق منطوق الشخصيات، وأرسل أغلبها أمثالا تجري بين الناس. وهو خبر داخل في قصة ثأر أوسع، وفي ترجمة شخصية عمرو بن عدّي، التي تغلب عليها الحوادث الأسطورية، بدايةً من نشأته واستطارة الجنّ له، ومحبة جذيمة له وتقريبه منه، وانتهاءً إلى سعيه بأخذ ثأر جذيمة.

يدخل "خطاب التاريخ" عند ابن الأثير ومن سار في مساره، في نقل أخبار القصد منها تأييد الأمثال وبيان مقاماتها، أو تتبّع شخصية وتجميع غريب الأخبار حولها، أو تفخيم حدث معلوم في الموروث الشفوي، فالتدوين التاريخي في هذا المقام يستند إلى مبدأ اعتماد الرواية والثقة في الروايات^٧. ولعل ذلك ما يُسوِّغ كثرة الأمثال الواردة في

والانقطاع عن ذلك بتفطّن سليمان لما يفعلن، وأصف بن برخيا، وهو صديق سليمان، وكان له الدور الفاعل في تجلية الحق، وكشف الأمر لسليمان وتنبهه بطريقة ذكية لما يحصل من معشوقته.

- ولنا من كلّ ذلك أن نسأل عن ماهية الحدث الذي أراد المؤرّخ أن يُورّخ له، لندرك أنّ الوقائع أُدخل في الميل إلى تتبّع غريب القصص المحقّق لمقاصد دينية، فلا حدث يُرتجى من تتابع صلة امرأة بزوجها، وانصرافها عنه لتقديس والدها.

- تتجاوز أحداث الخبر منطق التاريخ، وتلامس منطق القصص، ذلك أن الخبر هو حكاية تُروى، على صلة بعالم الجنّ والخطأ والغفران والتوبة، والظاهر والباطن، والترابط الحدّي الذي لا يُراعي وقوع الأحداث وتثبيتها في فضاء ماء، وإنّما هنالك سارد يدخل السرائر ويُظهر الكامن فيها. فنحن لسنا إزاء أحداث تاريخية ولا شخصيات تاريخية بمعنى التوثيق والتدوين، وإنّما سلاسة في الأحداث تنتهي إلى وقوف النبي على خطئه وطلبه الغفران بتعذيب نفسه، فالقصة تقوم على عقدة استغلال سليمان واستغلال وله لتحويل بيته إلى مكان يُعبّد فيه غير الله، من لدن زوجته، وتتهياً للأحداث على ذلك وتعتقّد.

المثال ٢: مأخوذ أيضاً من كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، (انظر الملحق النص ٢).

في النموذج الثاني الذي اتخذناه للدلالة على استغراق أخبار التاريخ في ارتباطها القصصي، وابتعادها عن محض التوثيق والتسجيل، اخترنا خبر جذيمة والزبّاء وقصير، وهو خبر مرتحل نجده في كتب أخبار الأدب وفي كتب أخبار التاريخ، ولنا عودة في القسم الثالث من البحث إلى المقارنة بين المقامين.

نلاحظ في الخبر قيامه على أمرين هامّين، أولهما تبئير شخصية الزبّاء في سعيها إلى الأخذ بثأر أبيها، وهو الخيط الذي نظم كلّ أحداث الخبر، وموضوع المطالبة بالثأر والاحتيايل لذلك لا يُمثّل هدفاً تاريخياً، ولكنّه يُشكل هدفاً أدبياً، تنتظم عليه أفعالاً وعوامل، وثانيها أنّ الأحداث عُقدت على الأقوال في مقامات علنية وغير علنية، وأغلب هذه الأقوال شكّل أمثالا سائرة بين الناس، وقد أكّد ذلك الخطاب التاريخي بشكل أوضح وأوفر ممّا نصّ عليه الخطاب الأدبي.

^٧ يقول بول ريكور: "ليس الحدث التاريخي ما يحدث ولكن ما يُمكن أن يُروى، أو ما تمت روايته بالفعل في أخبار أو أساطير، وأكثر من ذلك، لا يستثير الناس لدى المؤرّخين اضطرابهم إلى العمل مع شذرات مقطعة

في النقل لا في المنقول. ومنها أن الجامع المؤلف لا يُعمل العقل في النظر في الوقائع ووصلها بالأحوال، وهو أمر يقتضي علماً ونقداً، ونظراً في الوقائع ومراعاة خصوصياتها، ويصل الأمر إلى المنشئ الأول للخبر معاًينةً ومشاهدةً إذ ينقل الواقعة دون علم بالمقام العام والخاص الذي وقعت فيه. ومنها أخيراً التقرب من ذوي الجاه والسلطان، الأمر الذي يجعل المخبر يُدع أخباراً لإرضاء الطالب الراغب، دخولا في مقام سياسي يطلب فيها صاحب الأمر أخباراً تُرضيه وتستهوئه. يقول ابن خلدون: "ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته، وله أسباب تقتضيه. فمنها التشيعات للأراء والمذاهب فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاءً على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله. ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح. ومنها الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب. ومنها توهم الصدق وهو كثير وإنما يجيء في الأكثر من جهة النقل بالناقلين ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يُدخالها من التلبس والتصنع فيقولها المخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه. ومنها تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلّة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك فيستفيض الإخبار بها على غير حقيقة، فالنفوس موعدة بحبّ الثناء، والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها". (ابن خلدون، ١٩٩٩، ١/٥٧-٥٨)

يمكن أن ننتهي من خلال هذه الأمثلة من المصنّفات التي تحدّدت على أنّها تاريخية أنّها واقعة في تمثيل عوالم وأحداث يغلب عليها التخيل والإطلاق ومتابعة الروايات الأولى التي لم يستحكم فيها علم التاريخ تنقية ومراجعة وإعمالاً للعقل والمنطق في ضبط الحوادث وبيانها وتدوينها. فمن اليسير أن نلاحظ أنّ الذات المتكلمة في هذه المصنّفات لم تنهت على أنّها ذات باحثة عن الحقيقة التاريخية، بقدر ما هي ذات مُغلّبة لأهوائها وميوها، وإمكان تصديقها وفضاء اعتقادها، ولذلك، فقد كان المتكلم راوياً عالماً عارفاً، ينقل دواخل

أقوال الشخصيات في خبر جذيمة والزباء. وهو خبرٌ يؤكد صورة الراوي القاص لا المؤرخ، المرتكزة روايته على نقل الأقوال في صيغتها المباشرة.

وقد عمل ابن خلدون (ابن خلدون، ١٩٩٩، ٣/٥٤٤-٥٤٦) في سرده لنفس الخبر على تقليمه وتهذيبه واختصاره والاقصص منه على النوى الحديثة الكبرى، ذلك أنّ ابن خلدون قد اجتهد في اختصار عديد الأخبار، وروايتها في حدّها الأدنى، فهو في مقدمته بعد أن يعرض لعديد الروايات الأخبارية يقول: "وهذه الأخبار كلّها بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة" (ابن خلدون، ١٩٩٩، ١/١٧)، (انظر الخبر في الملحق، نص ٣)، غير أنّه حافظ على حدود القصة الأصلية التي مثلت منطلقاً للتوسّع في الحكاية، ولتبيّن شخصيات بدت مؤلدة بأحوالها وأعمالها وأقوالها. ولعلّ منزلة رواية ابن خلدون أن تظهر في التخلّص من حكاية الأقوال، وتلخيصها والتعبير عنها في وجيز من القول، ولكنّه يحافظ على الأحداث الكبرى، فالثأر هو مولد الأحداث والصلات، والشخصيات تحافظ على منازلها، فالرأسان هما جذيمة والزباء، والمساعدان الحكيمان هما أخت الزباء وقصير ناصح جذيمة وصاحبه، ولا غرابة في ذلك إذ ينقل ابن خلدون الخبر بتصرّف عن الطبري ويحذف في هذا النقل مصادر الخبر ورواته. فهو واقع في نهاية المطاف في هذا العالم التخيلي الذي صنعه الطبري بطريقة واعية أو بوثوقه في رواة الخبر.

لقد علق الكذب أصلاً وجوهاً في الخبر، فهو محدّد له، نظراً إلى عدد من المقامات التخاطبية التي ضبطها ابن خلدون بشكل جليّ أهمّها الثقة بالناقلين، وهو الأمر الذي غلب على النصوص التاريخية العربية الأولى، اعتماداً على رؤوس في الرواية ثقات، ومنها الذهول عن المقاصد، وهو أمرٌ جدّ هامّ انتبه إليه ابن خلدون، ذلك أنّ الخبر في أغلب الأحيان مرتبط بمقاصد يروم المخبر الأصليّ بلوغها، متعةً ودفعاً للملل، أو إرضاء لذوي نفوذ أو دخولا في نزاع قبليّ، أو طلباً للحقيقة التي تتنازعها الأهواء، ومنها توهم الصدق، وهو أمرٌ معقود بالمسألة الأولى الخاصة بالثقة في الناقلين، ذلك أنّ الرواة النقلة، أو الجامعين يقع في ظنهم أنّ ما روي من أخبار صادق بحكم أنّ حامله ثقة وأنّ سلسلة السند مرتبطة، فهو صدق

الأوصال فقط. يصنع المرء الحكمة بما يعرفه، والحكمة بطبيعتها "معرفة مقطعة الأوصال". (ريكور: ١/٢٦٧).

النسب عند الأصبهاني، في عودته إلى عدد من المصادر، وفي تحقيقه ونظره في أصول الشخصية المترجم لها، المتبعية أخبارها، وطريقة ابن خلدون صدورا عن رأي واحد في أغلب الأحيان هو رأي ابن الكلبي، بالرغم من أن مرجع التوجهين واحد وهو العودة إلى تخصص مستقل هو كتب النسب، ومن ذلك ما يرد في كتاب الأغاني على سبيل المثال من تدقيق مبالغ فيه أحيانا في ضبط الأنساب، ولنا أن نظير في ضبطه لنسب طريح "هو، فيما أخبرني به محمد بن الحسن بن دريد عن عمه عن ابن الكلبي في كتاب النسب إجازة، وأخبرنا يحيى بن علي بن يحيى عن أبي أيوب المدني عن ابن عائشة ومحمد بن سلام ومصعب الزبيري، قال: طريح بن إسماعيل بن عبيد بن أسيد بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن عترة بن عوف بن قسي، وهو ثيف، بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر.

قال ابن الكلبي: ومن النسب من يذكر أن ثيفا هو قسي بن منبه بن النبيت بن منصور بن يقدم بن أفصى بن دومي بن إباد بن نزار. ويقال: إن ثيفا كان عبدا لأبي رغال، وكان أصله من قوم نجوا من ثمود، فانتفى بعد ذلك إلى قيس. ورؤي عن علي بن أبي طالب (...) وقال الحجاج (...) وكان حماد الراوية يذكر (...) قال ابن الكلبي وأخبرني أبي صالح عن ابن العباس قال (...) قال ابن الكلبي في خبر طويل ذكره (...) (الأغاني ٢٠٠٨، ٤/٢١١-٢١٣)، ويتوسع الأصفهاني في الالتكاء إلى أسانيد مختلفة وأقوال متنوعة في ضبط هذا النسب، والوقوف على أصوله، وكثيرا ما يحقق الأصفهاني في نسب الشخصية التي يعرض إليها، ويتبع جذورها وأصولها دون أن يقتصر على مرجع واحد، خاصة بالنسبة إلى الشخصيات المختلف حول أصل من أصولها. ويدخل في هذا الإطار نفسه العمل على ضبط نسب مجنون بني عامر، إذ ثبت الأصفهاني في بداية التحديد، ثلاث صور لهذا الشاعر بين الوجود والعدم والتفتع. وكلها وجوه تتحقق بأسانيد مضبوطة الدقة، وبسلاسل رُواة تستند إليها هذه الأخبار.

ثبت الصورة الأولى وجود شخص في التاريخ يدعى قيس بن الملوّح ويكنى بمجنون بني عامر، ويقدم الأصبهاني عددا من الدلائل المثبتة لوجود هذه الشخصية من خلال تتبع أثره ونسبه وصفاته، "هو، على ما يقوله من صحح نسبه وحديثه، قيس، وقيل مهدي، والصحيح أنه قيس بن الملوّح

الشخصيات، وما كان خافيا عن عين المشاهد الراوي، وما كان دائرا في اختلاء الشخصيات، يروي ما يغيب عن نظر الناظر، وما يكون من حديث الذات، فيقع تبير.

٣- التاريخي في الخبر الأدبي

ليس من الغريب أن يدخل الخبر الأدبي في تخييل الوقائع وإطلاق الأماكن، ونقل أقوال لا شاهد عليها ولا وثيقة لها، فالقصد من الخبر الأدبي يُجوز له أن يدخل في تمثّل ما وقع، وأن يُصوّر الشخصيات وفقا لمقام السرد الذي ينشأ فيه الخبر، وليس من الغريب أيضا أن نجد آثار التاريخ في الخبر، بل كما سلف أن ذكرنا يُعدّ التاريخ بأحداثه وشخصياته نواة الخبر الأساسية، ولذلك فإنّ التاريخ يُمثّل المرجع الجوهرى للخبر، وهو الأمر الذي يتوحد فيه الخبر الأدبي مع الخبر التاريخي، من حيث وجود مادة تاريخية واحدة هي منطلق المقامين الأخباريين.

توظف أخبار الأدب أسماء شخصيات مرجعية، لها ظلال في الواقع التاريخي، وتستعملها في بناء مجال سردّي يستعمل في مقامات مختلفة، ففي كتاب الأغاني تكون الأسماء المرجعية في أغلب الأحيان باعثة تجميع الأخبار، ومنطلق الدخول في رسم فضاء تختص به تلك الشخصية، شجاعة أو قدرة على قول الشعر، أو كرما أو قوة واقتدارا أو مجونا أو صلاحا. ولذلك تنوّر في الخبر الأدبي أسماء مرجعية، لها ظلال في الوجود الفعلي، ولعل هذا ما جعل الأصبهاني ينتقد في عديد المصنّفات وترّد أخباره، إذ تُقبلت أخباره على أنّها تأريخ، وضبط للوقائع وهو الأمر الذي لم يعلنه المؤلف.

وأول أبواب التدقيق التي يدخل فيها صاحب الأغاني أنه يضبط النسب بشكل تفصيلي ومتواصل، حتى تتمايز الأسماء ويتوضح انتسابها، ولا غرابة في ذلك، فكتاب الأغاني قد أكل عددا من كتب الأنساب ووظفها في مقدمات الشخصيات التي يحددها ويحدّد مجالها، وقد تفوق دقة تتبع الأنساب عنده ما يتحرّاه المؤرّخون (يمكن نشير إلى الفارق بين طريقة ضبط

٤- "ولسنا نريد من هذا الاستعراض الموجز أن نحتج لأدبية التاريخ أو لتاريخية الأدب، وإنّما غرضنا أن نبيّن أنّ ما يبدو لنا الآن من فواصل وفروق بين الخبر في الأدب والخبر في التاريخ لم يكن قائما في مؤلفات القدامى. فقد كان الخبر في هذه المؤلفات وفي غيرها، ككتب المغازي والسير والتراجم، مشدودا إلى الواقع أو مقدّما على صورة من هذا الواقع" (القاضي ٥٩٥-٥٩٦)

يظهر ما بينه وبينها، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يرويها الناس للمجنون ونسبها إليه" (الأصفهاني، ٢٠٠٨، ٦/٢).

يُقدّم الأصفهاني صورة الشاعر المجنون في كلِّ إمكانات تحقّقها، تحوّلًا من الشخص إلى الشخصية، ومن الشخصية إلى الشخص، فهناك إمكانية غير مؤكّدة لوجود هذا الشاعر كيانًا واسمًا وحوادث وأشعارًا، وهناك إمكانيتان لعدم وجوده، لتصير الشخصية المصنوعة في رحابة الأدب وقدرته التخيلية، شخصًا حقيقيًا مثبتًا في مصنّفات كتب تاريخ الأدب.

ولنا أيضًا نظر أيضًا في مدوّنة أخباريّة شكّلت موادّ مشتركة بين كتب الأدب وكتب التاريخ وهي أخبار الأيام، التي تظهر فيها الدقّة التي كان يعتمدها صاحب الأغاني في التفكير في المراجعة، والاجتهاد لبلوغ الصورة الأقرب إلى الحدوث، وتقصي الأماكن، والوقوف على أهمّ الحوادث وأبرز محدّثيها، وتبيّن من نظرنا في هذه الأيام أنّ فعل النقل الذي يثيره المؤرّخون حاصل بالفعل في ما يرويه الأصبهاني، ففي مقارنة بسيطة بين النصّ الأوّل الذي ضمّ أخبار الأيام وهو "كتاب النقائص"، والنصّ الناقل، وهو كتاب الأصبهاني، نقف على قدرة الأصبهاني على الوفاء في النقل، وتمكّنه من ضرب الخبر بالخبر، وإرجاع الرواية إلى الرواية، ليترك القارئ أمام فسيح المعنى، دون أن يقصر الأمر على الوجهة الواحدة التي تُظهر ميل الذات المتكلّمة إلى رواية بعينها أو إلى مصدر مخصوص.

ففي يوم الكلاب الثاني على سبيل المثال الذي يُسنده الأصبهاني إلى أبي عبيدة، نلاحظ تماثلاً تاماً بين الخبر المحمول في كتاب الأغاني (الأصفهاني، ٢٠٠٨، ١٦/٢٢٤) والخبر الأصلي في كتاب أبي عبيدة (أبو عبيدة، ٢٠٠٧، ١/١١١)، لفظاً ومعنى، وهو الأمر الذي يؤكّد القدرة النقلية والتأليفية لصاحب الأغاني، فعهدته الخبر لا تُردّ إليه وإنّما إلى المصدر الذي عنه صدر، نقلاً أو جمعاً بين عدد من الروايات إذا لاحظ نقصاً أو اختلافاً.

ولنا أن نلاحظ أخيراً أنّ الذات المتكلّمة في كتاب الأغاني تنقل خبر الزبّاء وجذيمة (انظر الملحق النصّ ٤) سابق الذكر في مصنّفين تاريخيين، بشكل تتحدّد فيه الذوات الفاعلة، وتُدقّق الأماكن، ولا يختلف في ظاهره وفي جوهره عمّا ورد في رواية ابن الأثير في تاريخه، كما أنّه لا يختلف جوهرًا عن رواية ابن خلدون له.

بن مُزاحم بن عدّس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، ومن الدليل على أنّ اسمه قيسٌ قول ليلي صاحبه فيه: (من الطويل)

ألا ليت شعري والخطوبُ كثيرةٌ متى رَحَل قيسٌ
مُسْتَقْبَلُ فَرَاجِعُ

وأخبرني الحسن بن عليّ قال حدّثنا أحمد بن زهير قال: سمعت من لا أُحصى يقول: اسم المجنون قيس بن الملوّح" (الأصفهاني، ٢٠٠٨، ٥/٢)، ويدخل بعد إثبات النسب والتحقّق من الاسم في الاستناد إلى مرجعيّات هامة في الرواية للتحقّق من الصفة وهي الجنون من عدمه، ويرفع خبره إسناداً إلى رأس من رؤوس رواية الأخبار العربية وهو الأصمعي، يقول، "وأخبرني هاشم بن محمّد الخُزاعيّ قال حدّثنا الرياشيّ، وأخبرني الجوهريّ عن عمّر بن شبة أنّهما سمعا الأصمعيّ يقول، وقد سُئل عنه: لم يكن مجنوناً ولكن كانت به لؤثة كلّوثة أبي حيّة النميري" (الأصفهاني، ٢٠٠٨، ٥/٢).

الصورة الثانية تتوجّه إلى إثبات عدم وجود الشخص، وأنّه صورةٌ صنّعت في إطار الصراع القبليّ، لإثبات وهن رجال بني عامر، وتوجّههم إلى الغزل وهو أمرٌ مسيء إلى صورة القبيلة، ويُمكن أن ندرّك هذا البعد القبليّ الجليّ في هذا الخبر الذي يرفعه الأصفهاني إلى ابن دأب وهو عيسى بن يزيد من طبقة الأخباريين الأوائل، يقول "وأخبرني عمّي قال حدّثنا أحمد بن الحارث عن المدائني عن ابن دأب قال: قلتُ لرجل من بني عامر: أتعرّف المجنون وتروي من شعره شيئاً؟ قال: أوّقد فرغنا من شعر العقلاء حتّى نروي أشعار المجانين؟ إنهم لكثير! فقلتُ: ليس هؤلاء أعني، إنّما أعني مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق، قال: هيهات، بنو عامر أغلظ أكبداً من ذلك، إنّما يكون هذا في هذه اليانّة الضّعاف قلوبها، السخيفة عقولها، الصّعلّة رؤوسها، فأما نزار فلا." (الأصفهاني، ٢٠٠٨، ٥/٦).

أمّا الصورة الثالثة التي يُثبتها الأصبهاني، فهي صورة التقنّع، وذلك يعني أنّ أحدهم اختفى خلف اسم وهمي نظراً إلى منزلته الاجتماعية والقبليّة، وهي صورة يثبت فيها الشاعر دون الانتساب إلى قبيلة بني عامر، ودون أن يكون له اسم قيس، وإنّما هو يتخفّى خلف اسم مصطنع، يقول، "وأخبرني عمّي عن الكُرانيّ قال حدّثنا ابن أبي سعد عن عليّ بن الصّباح عن ابن الكلبيّ قال: حدّثت أنّ حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بني أميّة كان يهوى ابنة عمّ له، وكان يكره أن

خاتمة

إنّ الخبر في التراث العربي يُمثّل وحدة شكلية مرتحلة تُداخل مقامات مختلفة، فتأخذ منها وجهها، ولكونها في أصل عنصرها تُحافظ على كونها وعلى روحها الأولى التي أتبعها الأوائل الفاعلون في صناعة السرد العربي، فهما للنصوص السردية القديمة وتقبلا للقصص القرآني وبناء للقصص النبوي وصناعة لفضاء معرفي وتاريخي وأنسابي وديني اعتمادا على آله الخبر.

ومن خلال مقارنة بين مقامين في الأصل هما مختلفان مؤتلفان، مختلفان نظرا إلى أن أصحاب المصنّفات يدعون أنهم بصدد التأريخ، أو بصدد كتابة أخبار في الأدب لا يدخل في مقاصدها طلب الصدق، وإنما تحقيق ما يصبو إليه المخاطب وما يميل إلى قراءته. ومؤتلفان نظرا إلى أنّ المجالين متداخلان، مشتركان في تسخير نفس الموادّ الأخبارية بروايتها وأصولها وتقلتها، أدركنا أنّ الخبر لفظا ومعنى ونقلا يظلّ واحدا سواء دخل في مقام التاريخ أو في مقام الأدب، وذلك أمر يُحيلنا إلى ثلاث نتائج هامة:

- أن التفرقة القاطعة بين التخصصات في القرون الإسلامية الأولى لم تكن قاطعة ولا صارمة، ولذلك فقد عدّ الأدب جامع علومهم، وتعرّس على العرب أن يُدرّكوا مستويات التخييل في النثر، في حين تُقبّل التخييل في الشعر.
- أنّ الخبر كان يحمل في ثناياه مستويات من المصدقية التي تُثبت صلته بالنقل، من خلال توفر صرامة في بناء الأسانيد عوّل عليها كثيرا الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، وفي الآن ذاته فإنّ الذات المتكلمة في الخبر تنجح إلى التخييل لجبّ نقص أو لتمام رواية أو لعرض جواب طلب.
- أنّ الخبر لا يستمدّ أجناسيته من المقام الذي أدخل فيه وإنما هو كتحقق بذاته أنتجه رُواة رؤوس لا ينتمون بالضرورة إلى حقل مخصوص غير حقل رواية الخبر وهو تخصص بذاته، فيتلقفه الفقيه للتبرير والتجويد والتشريع ويستند إليه المؤرّخ للتثبيت والترهين، ويدعوه الأديب للإمتاع والإفادة، فكلّ واجد في الخبر طلبه، وكلّ مستعمل له بشكله ومعناه أو بما شابه شكله ومعناه لتحقيق مقاصد قد تُخرج الخبر عن أصل شكله ومعناه.

ملحق النصوص المعتمدة في البحث

النص ١

"قيل: سمع سليمان بملك في جزيرة من جزائر البحر وشدة ملكه وعظم شأنه، ولم يكن للناس إليه سبيل، فخرج سليمان إلى تلك الجزيرة، وحملته الريح حتى نزل بجنوده بها، فقتل ملكها وغنم ما فيها، وغنم بنتا للملك لم ير الناس مثلها حسنا وجمالا فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت على قلة رغبة فيه، وأحبها حبّا شديدا، وكانت لا يذهب حزنها، ولا تزال تبكي، فقال لها: ويحك ما هذا الحزن والدمع الذي لا يرقا؟ قالت: إني أذكر أبي وملكه، وما أصابه فيحزنني ذلك. قال: قد أبدلك الله ملكا خيرا من ملكه وهداك إلى الإسلام. قالت: إنّه كذلك، لكنني إذا ذكرته أصابني ما ترى، فلو أمرت الشياطين فصوروا صورته في داري أراها بكرة وعشيّة، لرجوت أن يذهب ذلك حزني.

فأمر الشياطين فعملوا لها مثل صورته لا ينكر منها شيئا، وألبستها ثيابا مثل ثياب أبيها، وكانت إذا خرج سليمان من دارها، تغدو عليه في جواربها، فتسجد له، ويسجدن معها، وتروح عشيّة ويرحن، فتفعل مثل ذلك ولا يعلم سليمان بشيء من أمرها أربعين صباحا.

وبلغ الخبر آصف بن برخيا، وكان صديقا، وكان لا يرُدّ من منازل سليمان أيّ وقت أراد من ليل أو نهار، سواء كان سليمان حاضرا أو غائبا، فأثابه فقال: يا نبي الله قد كبر سنّي ودقّ عظمي وقد حان منّي ذهاب عمري وقد أحببت أن أقوم مقاما أذكر فيه أنبياء الله وأثنى عليهم بعلمي وأعلم الناس بعض ما يجهلون. قال: افعل. فجمع سليمان الناس، فقام آصف خطيبا فيهم، فذكر من مضى من الأنبياء وأثنى عليهم حتى انتهى إلى سليمان فقال: ما كان أحلمك في صغرك، وأبعدك عن كلّ ما يُكره في صغرك. ثم انصرف.

فملىء سليمان غضبا، فأرسل إليه وقال له: لما ذكرتني جعلت تُثني عليّ في صغري، وسكت عمّا سوى ذلك، فما الذي أحدثت في آخر أمري؟ قال: إن غير الله ليعبد في دارك أربعين يوما في هوى امرأة، قال: (إنّا لله وإنّا إليه راجعون)، ولقد علمت أنّك ما قلت إلا عن شيء بلغك. ودخل داره وكسر الصنم، وعاقب تلك المرأة وجواربها. ثم أمر بثياب الطهارة فأثى بها، وهي ثياب تغزلها الأبقار اللاتي لم يُحسّن، ولم تمسّها امرأة ذات دم، فلبسها وخرج في الصحراء، وفرش الرماد ثم أقبل تائبا إلى الله وتمعك في الدماء بثيابه تذلا لله

واستقبله رسل الزبّاء بالهدايا والألطاف، فقال: يا قصير كيف ترى؟ قال: خطر يسير، وخطب كبير، فذهبت مثلاً، وستلقاتك الخيول، فإن سارت أمامك فإن المرأة صادقة، وإن أخذت جنبيك وأحاطت بك فإن القوم غادرون، وكانت فرسا لجذيمة لا تُجاري، فإني راجبها ومسايرك عليها. فلقيته الكتائب فحالت بينه وبين العصا، فركبها قصير، ونظر إليه جذيمة موليا على منتها، فقال: ويل أمّه حزما على متن العصا! فذهبت مثلاً. وقال: ما ضلّ من تجري به العصا، فذهبت مثلاً، وجرت به إلى غروب الشمس، ثم نفقت وقد قطعت أرضا بعيدة، فبني عليها برجاً يقال له برج العصا، وقالت العرب: خيرٌ ما جاءت به العصا، مثل تضربه.

وسار جذيمة وقد أحاطت به الخيول حتى دخل على الزبّاء، فلما رآته تكشّفت، فإذا هي مضمورة الازب، والاسب بالباء الموحدة هو شعر الاست، وقالت له: يا جذيمة أدأب عروس ترى؟ فذهبت مثلاً. فقال: بلغ المدى، وجفّ الثرى، وأمر غدر أرى، فذهبت مثلاً. فقالت له: أما وإلهي ما بنا من عدم مواس، ولا قلة أواس، ولكنها شيمة من أناس، فذهبت مثلاً. وقالت له: أنبتت أن دماء الملوك شفاء من الكلب. ثم أجلسته على نطع وأمرت بطست من ذهب، فأعدّ له، وسقته الخمر حتى أخذت منه مأخذها، ثم أمرت براهشيّه فقطعا، وقدمت إليه الطست، وقد قيل لها: إن قطر من دمه شيء في غير الطست طُلب بدمه. وكانت الملوك لا تُقتل بضرب الرقبة إلا في قتال تكرمه للملك. فلما ضعفت يده سقطتا، فقطر من دمه في غير الطست، فقالت: لا تضيّعوا دم الملك! فقال جذيمة: دعوا دما ضيّعاه أهله! فذهبت مثلاً". (ابن الأثير ٣٤٥-٣٤٨/١)

النص ٣

"قال الطبري: وكان ملك العرب بأرض الحيرة ومشارف الشام عمرو بن ظرب بن حسان بن أدينة بن السُميدع بن هوثر العملاقي، فكانت بينه وبين جذيمة حرب قتل فيها عمرو بن الظرب وفضت جموعه. وملكته بعده بنته الزبّاء واسمها نائلة، وجنودها بقايا العمالقة من عاد الأولى، ومن تهمد وسليح ابني حلوان ومن كان معهم من قبائل فُضاعة، وكانت تسكن على شاطئ الفرات وقد بنت هنالك قصرا، وتربّع عند بطن المجاز وتُصيّف بتدمر. ولما استحکم لها الملوك أجمعت أخذ الثأر من جذيمة بأبيها، فبعثت إليه توهمة الخطبة، وأتتها امرأة لا يليق بها الملك،

تعالى وتضرّعا، وكبّر واستغفر، ثم عاد إلى داره". (ابن الأثير ٢٣٨-٢٤٠/١)

النص ٢:

"وكان ملك العرب بأرض الجزيرة ومشارف الشام عمرو بن الظرب بن حسان بن أدينة العمليقي من عاملة العمالقة، فتحارب هو وجذيمة، فقتل عمرو وانهمزت عساكره، وعاد جذيمة سالما، وملكته بعد عمرو ابنته الزبّاء، واسمها نائلة، وكان جنود الزبّاء بقايا العماليق وغيرهم، وكان لها من الفرات إلى تدمر. فلما استجمع لها أمرها واستحکم ملكها، اجتمعت لغزو جذيمة تطلب بثأر أبيها، فقالت لها أختها ربيبة، وكانت عاقلة: إن غزوت جذيمة فإنها هو يوم له ما بعده والحرب سجال، وأشارت بتترك الحرب وإعمال الخيلة. فأجابتها إلى ذلك، وكتبت إلى جذيمة تدعوه إلى نفسها وملكها، وكتبت إليه أنها لم تجد ملك النساء إلا قبحا في السماع وضعفا في السلطان، وأنها لم تجد لملكها ولا لنفسها كفوا غيره.

فلما انتهى كتاب الزبّاء إليه استخفّ ما دعتة إليه وجمع إليه ثقاته، وهو ببقّة من شاطئ الفرات، فعرض عليهم ما دعتة إليه واستشارهم، فأجمع رأيهم على أن يسير إليها ويستولي على ملكها.

وكان فيهم رجل يُقال له قصير بن سعد بن لحم، وكان سعد تزوّج أمة لجذيمة فولدت له قصيرا، وكان أديبا حازما ناصحا لجذيمة قريبا منه، فخالفهم في ما أشاروا به عليه، وقال: رأي فاتر، وغدرٌ حاضر، فذهبت مثلاً، وقال لجذيمة: اكتب إليها فإن كانت صادقة فلتقبّل إليك، وإلا لم تمكّنها من نفسك وقد وترتها وقتلت أباها.

فلم يُوافق جذيمة ما أشار به قصير، وقال له: لا ولكنك امرؤ رأيك في الكن لا في الضحّ، فذهبت مثلاً.

ودعا جذيمة ابن أخته عمرو بن عدي فاستشاره، فشجّع على المسير وقال: إن نأرة قومي مع الزبّاء، فلو رأوك صاروا معك، فأطاعه.

فقال قصير: لا يطاع لقصير أمر. وقالت العرب: ببقّة أبرم الأمر، فذهبتا مثلاً.

واستخلف جذيمة عمرو بن عدي على ملكه، وعمرو بن عبد الجنّ على خيوله معه، وسار في وجوه أصحابه، فلما نزل الفرضة، قال لقصير: ما الرأي؟ قال: ببقّة تركت الرأي، فذهبت مثلاً.

النص ٤:

"قال ابن حبيب في خبره: وكان جذيمة من أفضل الملوك رأيا، وأبعدهم مُغاراً، وأشدّهم نكايَةً، وهو أول من استجمع له الملك بأرض العراق، وكانت منازلها ما بين الأنبار وبقّة وهيت وعين عمر، وأطراف البرّ والقَطَطَانة والحيرة، فقصد في جموعه عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوير العامليّ، بن عاملة العماليق، فجمع عمرو جموعه ولقيه، فقتله جذيمةً وفَضَّ جموعه، فانفلّوا وملّكوا عليهم ابنته الزبّاء، وكانت من أحزم الناس، فخافت أن تغزوها ملوك العرب، فأتخذت لنفسها نفقا في حصن كان على شاطئ الفرات، وسكّرت الفرات في وقت قلة الماء، وبنت أزجا من الأجرّ والكلس، متّصلا بذلك النفق، وجعلت نفقا آخر في البرية متّصلا بمدينة لأختها، ثم أجرت الماء عليه، فكانت إذا خافت عدواً دخلت النفق. فلما اجتمع لها أمرها واستحکم مملكتها أجمعت على غزو جذيمة ثائرة بأبيها، فقالت لها أختها وكانت ذات رأي وحزم: إنك إن غزوت جذيمة فإنه امرؤ له ما يصدّه، فإن ظفرت أصبت ثأرك، وإن ظفر بك فلا بقيّة لك، والحرب سجال، ولا تدرين كيف تكون ألك أم عليك، ولكن ابعتي إليه فاعلميه أنك قد رغبت في أن تتزوّجيه وتجمعي ملكك إلى ملكه، وسليه أن يجيبك إلى ذلك، لأنه إن اغترّ ففعل ضفرت به بلا مخاطرة. فكتبت الزبّاء في ذلك إلى جذيمة تقول له إنّا قد رغبت في صلة بلدها ببلده، وإنّا في ضعف من سلطانها، وقلة ضبّط لمملكتها، وإنّا لم نجد كفتا غيره، وتساله الإقبال عليها وجمع مملكتها إلى ملكه. فلما وصل ذلك إليه استخفّه وطمع فيه، فشاوّر أصحابه فكلّ صوّب رأيه في قصدتها وإجابتها، إلا قصير بن سعد بن عمرو بن جذيمة بن قيس بن هلال بن نهار بن لحم، فقال: هذا رأي فاتر، وغدرّ حاضر، فإن كانت صادقة فلنقبل إليك وإلا فلا تمكّنها من نفسك فتقع في حبالها وقد وترتها في أبيها. فلم يوافق جذيمة ما قال، وقال له: "أنت امرؤ رأيك في الكنّ لا في الضحّ". ورحل فقال له قصير في طريقه: "انصرف ودمك في وجهك". فقال جذيمة: "ببقة قضي الأمر"، فأرسلها مثلاً. ومضى حتّى إذا شارف مدينتها قال لقصير "ما الرأي؟"، قال: "ببقة تركت الرأي". قال: "لما ظنك بالزبّاء؟"، قال: "القول رداف، والحزم عيرانة لا تخاف". واستقبله رسلها بالهدايا والألطف فقال: "يا قصير، كيف ترى؟"، قال: "خطر يسير في خطب كبير"، وستلقاك الخيول، فإن سارت أمامك فالمرأة صادقة، وإن أخذت في جنبك وأحاطت بك

فيجمع ملكها إلى ملكه، فطمع في ذلك، ووافق قومه، وأبى عليه منهم قصير بن سعد بن عمرو بن جذيمة بن قيس بن أربي بن نهار بن لحم، وكان حازماً ناصحاً، وحذره عاقبة ذلك، فعصاه واستشار ابن أخته عمرو بن عديّ فوافق، فاستخلفه على قومه وجعل على خيوله عمرو بن عبد الجنّ. وسار هو على غربي الفرات إلى أن نزل رحبة مالك بن طوق. وأتته الرسل منها بالألطف والهدايا، ثم استقبلته الخيول. فقال له قصير إن أحاطت بك الخيول فهو الغدر، فاركب فرسك العصا، وكانت لا تجارى. فأحاطت به الخيول ودخل جذيمة على الزبّاء، فقطعت رواهش فسال دمه حتّى نزل ومات.

وقدم قصير على عمرو بن عديّ وقد اختلف عليه قومه، ومال جماعة منهم إلى عمرو بن عبد الجنّ فأصلح أمرهم، حتّى انقادوا جميعاً لعمرو بن عديّ، وأشار عليه بطلب الثأر من الزبّاء بخاله جذيمة، وكانت الكاهنة قد عرفتها بملكها وأعطتها علامات عمرو فحضرته، وبعثت رجلاً مصوراً يَصوّر لها عمراً في جميع حالاته، فسار إليه متنكراً واختلط بحشمه، وجاء إليه بصورته، فاستبته وتيقنت أن مهلكها منه. واتخذت نفقا في الأرض من مجلسها إلى حصن داخل مدينتها. وعمد عمرو إلى قصير فجذع أنفه بمواطاة منه على ذلك، فلحق بالزبّاء يشكو ما أصابه من عمرو وأنه أتته بمدخله الزبّاء في أمر خاله جذيمة، وما رأيت بعد ما فعل بي أنكى له من أن أكون معك، فأكرمته وقربته حتّى إذا رضي منها من الوثوق به أشار عليها بالتجارة في طرف العراق، وأمتعته فأعطته مالا وعيرا. وذهب إلى العراق ولقي عمرو بن عدي، فجهزه بالطرف والأمتعة كيما يرضيها، وأتاها بذلك فازدادت ه وثوقاً وجهزه بأكثر من الأولى.

ثم عاد الثالثة وحمل بعة الجنّد من أصحاب عمرو في الغزائر على الجمال وعمرو فيهم، وتقدّم فبشّرها بالعين وبكثرة ما حمل إليها من الطرف، فخرجت تنظر فأنكرت ما رآته من الجمال من التكراد. ثم دخلت العين المدينة، فلما توسّطت أنيخت وخرج الرجال، وبادر عمرو إلى النفق فوقف عنده، ووضع الرجال سيوفهم في أهل البلد، وبادرت الزبّاء إلى النفق فوجدت عمراً قائماً عنده، فلحمها بالسيف وماتت، وأصاب ما أصاب من المدينة وانكفاً راجعاً" (ابن خلدون، ١٩٩٩، ٥٤٤/٣-٥٤٦)

ابن خلدون، عبد الرحمان: موسوعة العلامة ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، القاهرة- لبنان: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني ١٩٩٩.

ريكور، بول، ترجمة: سعيد الغانمي، فلاح رحيم: الزمان والسرد، ط١، بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٦.

زروق، محمد: صورة الجاهلية، الجاهلية بين التصور الأدبي والحقيقة التاريخية، ط١، الأردن: دار جرير، ٢٠١٢.

الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم: تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الطبعة الرابعة. مصر، دار المعارف، (د.ت).

أبو عبيدة، معمر بن المثنى، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز سالم: كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق، ط٢، لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧.

القاضي، محمد: الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية، ط١، تونس- بيروت: منشورات كلية الآداب منوبة، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨.

الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، تحقيق: أحمد زكي باشا: كتاب الأصنام، ط٣، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٩٥.

ابن منبه وهب: كتاب التيجان في ملوك حمير، ط١، الجمهورية العربية اليمنية: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، ١٣٤٧ هـ.

المراجع الأجنبية:

Rodríguez Somolinos, "Locuteur, Enonciateur, et prise en charge. Quelques remarques sur la polyphonie en linguistique". Maria luz casal silva et al. (eds). *La lingüística francesa en españa camino del siglo, XXI*, 2000, Fludernik, Monika, Translated from the German by; Patricia Häusler-Greenfield and Monika Fludernik: *An Introduction to NARRATOLOGY*, London and New York, Routledge, 2009

فالقوم غادرون. فلقيته الخيول فأحاطت به، فقال له قصير: "اركب العصا فإنها لا تُرك ولا تُسبق، يعني فرسا له كانت تُجَنَّب، قبل أن يُحُولوا بينك وبين جنودك"، فلم يفعل، فجال قصير في ظهرها فمرت به تعدو في أول أصحاب جذيمة. ولما أحيط بجذيمة التفت فرأى قصيرا على فرسه العصا في أول القوم، فقال: "لَحَازِمٌ مَنْ يُجْرِي العصا في أول القوم". فذكر أبو عبيدة والأصمعي أنها لم تكن تقف، حتى جرت ثلاثين ميلا، ثم وقفت فبالت هناك، فبني على ذلك الموضع بُرج يُسمى العصا، وأخذ جذيمة فأدخل على الزباء فاستقبلته قد كشفت فن فرجها، فإذا هي قد ظفرت الشعر عليه، فقالت: "يا جذيم أذات عروس ترى؟ قال: بل أرى متاع أمة لكعاء غير ذات خفر. ثم قال: بلغ المدى، وجف الثرى، وأمر غدر أرى. قال: والله ما ذلك من عدم مَواسٍ، ولا قلة أواس، ولكنها شيمة ما أناس. ثم قالت لجواربها: خُذْنِ بَعْضُ سَيْدِكْنِ. ففعلن، ثم دعت بنطع فأجلسته عليه، وأمرت برواهشه، فقطعت في طست من ذهب يسيل دمه فيه، وقالت له: يا جذيم لا يضيعن من دمك شيءٌ فإنني أريده للخبَل. فقال لها: وما يُخزَنك من دم أضاعه أهله. وإنما كان بعض الكهان قال لها: إن نَقط من دمه شيء في غير الطست أدرك بثأره. فلم يزل دمه يجري في الطست حتى ضعُف، فتحرك، فنقطت من دمه نقطة على أسطوانة رخام ومات". (الأصفهاني، ٢٠٠٨، ١٥/٢١٣-٢١٥)

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية:

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، بيروت: دار صادر. (د.ت).

- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، تحقيق: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس: كتاب الأغاني، ط٣، بيروت: دار صادر، ٢٠٠٨.

